جلال الدين السيوطى

بحوث ألقيت فى الندوة التى أقامها
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية
بالاشتراك مع
الجمعية المصرية للدراسات التاريخية
٦ — ١٠ مارس ١٩٧٦

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٧٨

جمهورية مصر العربية

وزارة الثقافة

المكتبة العربية

يصدرها

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

بالاشتراك مع

الهيئة المصرية العامة للكتاب

القاهرة

القسم الخامس

السيوطي والدراسات اللغوية والأدبية

السيوطي والدرس اللغوي

للدكتور عبده الراجحي

الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية
كلية الآداب جامعة الاسكندرية

لا يكـاد الحديث عن منهج العرب فى درس اللغـة يخلو من الحديث عن المصادر التى صدر عنها هذا المنهج ، والأغلب ألا يخلو ذلك من البحث عن مصادر يونانية أو هندية أو سريانية • والبحث عن المصادر فى حد ذاته مسلك علمى قويم ، غير أن السعى الى ارجاع كل نشاط علمى الى مصادر خارجية قد لا يبرأ من ادعاء «الموضوعية» حين يخشى المتحدثون عن «الأصالة» شبهة السقوط فى شرك التعصب والهوى • « وادعاء الموضـوعية » « وعدم الموضوعية » فى معيار البحث سيان ، كلاهما ليس من العلم بسبب •

ولا أحسب الحديث عن السيوطى اللغوى الا حديثا عن المنهج العربى رغم الحقيقة العلمية الهامة التى تؤكد أن الفترات الباكرة من درس اللغة عند العرب هى الصـالحة لدراسة هذا المنهج • غير أن السـيوطى ــ رغم تأخيره الزمنى عن فترات النشـأة والازدهار فى القرون الأربعة الأولى ــ يصور بأعماله اللغوية خصائص المنهج العربى فى مراحله الأولى ثم يضيف اليها ما أضافته المراحل المتأخرة مما اتخذه بعض الباحثين أساسا للحكم على المنهج على العموم •

ولسنا هنا ندعى « الأصالة » للمنهج العربى لأن « الأصالة » تعبير غير واضح وغير علمى فيما نظن ، وهى على الأغلب مسألة « نسبية » وبخاصة فيما يتصل بالنشاط العلمى . نقول هذا بمناسبة ما بلفت اليه بعض أساتذتنا وباحثينا من أن الدرس العربى للغة يستند الى أصول يونانية أو هندية . ونحن ــ فى الأغلب ــ لا نملك ما نرفض به هذا الرأى كما لا يملك أصحابه ما يدعمونه به . ومن ثم ندعو الى التوقف حيال القضية كما يتوقف أصحاب الحديث حيال «مجهول الحال» أو كما يتوقفون انتظارا «للمتابعة» أو «للاعتبار» .

غير أن الذى نكاد نطمئن اليه أن نشأة الدرس اللغوى عند العرب تختلف عنها عند أبناء اللغات الهندية الأوروبية ، لاختلاف المصادر والوسائل والغايات ، وأن المنهج العربى تطور تطورا « داخليا » واستوى هذا الاستواء المعروف فى القرون الأولى من « داخل » البيئة الاسلامية لا من « خارجها » ، أو هذا ما تؤدى اليه المادة المعروفة لدينا حتى الآن ، وهى فى الحق مادة قليلة جدا الى ما تؤكده كتب التاريخ والتراجم من نشاط لغوى واسع يحتاج الى جهد أجيال وأجيال .

والذى نراه أن خصائص المنهج العربى لا ينبغى أن نفتش عنها عند أرسطو أو عند الهنود وانما تتحراها فى البيئة الاسلامية وبخاصة عند الفقهاء والمتكلمين .

والذى لا شك فيه أن علوم اللغة عند العرب نشأت فى ظلال القرآن ، وانها وغيرها من العلوم كانت تهدف الى خدمة النص الكريم ، فعلوم القرآن والحديث والأصول والكلام واللغة كانت متداخلة ذلك التداخل الذى تقتضيه الغاية التى كانت جميعها تنتهى اليها ، ومن ثم كان هذا التبادل فى التأثير بين هذه العلوم ، فى المنهج

أحيانا ، وفى المصطلح أحيانا أخرى ، وفى غير ذلك من فنون البحث ، وأنت لا تستطيع أن تفهم منهج العرب فى درس اللغة الا فى ضوء هذا الواقع .

والسيوطى ـ كما قلنا ـ يمثل هذه الحقيقة أصدق تمثيل ، فقد توفر الرجل على معارف كثيرة ، يدرسها ويؤلف فيها ، وقد توافرت لديه جهود قرون طويلة من العمل العلمى المتواصل . والحق أننا لا نستغرب هذه الكثرة الواضحة فيما قدم الرجل من علوم الا استغراب تقدير الجهد الانسانى ، لأن هذه العلوم التى تبدو مختلفة كانت تصدر عن مصدر واحد وكانت تشترك فى طرائف التناول وظواهر التأثير .

ولقد أخذ السيوطى يضرب فى كل ميدان يصل اللغة بهذه العلوم ، بل انه لا يكاد يكتب شيئا فى اللغة الا فى ضوء هذا التأثير العام الذى ذكرناه ، ومن اليسير أن تضع يديك على ذلك فى كل ما كتب على وجه التقريب ، فهو يصل اللغة بالقرآن ، وبالحديث وبالأصول ، وبكل ما يتصل بالدين على العموم .

١ ـ ونبدأ بأبحاثه اللغوية عن ألفاظ القرآن التى تكاد تركز على ناحيتين ، أولاهما ما فى القرآن من لهجات القبائل العربية ، على ما يظهر فيما قدمه فى « الاتقان » عن « غريب القرآن ، وما وقع فيه بغير لغة أهل الحجاز » (١) وهو موضوع لغوى هام أخذ يلفت أنظار الباحثين المحدثين لما يفيده فى معرفة العربية التى كانت سائدة قبيل نزول القرآن ، وفى « وزن » هذه « اللهجات » بميزانها اللغوى الصحيح (٢) .

---

(١) الاتقان ١/١١٥ ـ ١٣٦ .

(٢) انظر كتابنا : اللهجات العربية فى القراءات القرآنية ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٨ .

أما الناحية الثانية فتتصل بموضوع غير بعيد عن هذا الموضوع، وهو دراسة ما ورد فى القرآن بغير لغة العرب ، وقد ظهر ذلك عنده فى كتابين : المتوكلى فيما ورد فى القرآن باللغة الحبشية والفارسية والهندية ، والتركية ، والزنجية ، والنبطية ، والقبطية ، والسريانية ، والعبرانية ، والرومية ، والبربرية ، وهو كتيب (١) ألفه للخليفة العباسى المتوكل على الله ورتب ألفاظه حسب اللغات ، فبدأ بالحبشية ثم الفارسية وهكذا .... والكتاب الثانى هو «المهذب فيما ورد فى القرآن من المعرب» (٢) . وهو كتيب يعرض لموضوع الكتاب السابق غير أن ترتيبه حسب الألف باء . وهذا موضوع هام أيضا سوف يظل له مكانه فى الدرس اللغوى بما يقدم للبحث من مادة تفيد فى معرفة حياة اللغة ، وتطورها ، « وقوانين » اتصالها بغيرها من اللغات . واذا كان العرب لم يعرفوا « المنهج المقارن » كما هو فى البحث الحديث ، فان المادة التى قدموها ــ على ما بينه السيوطى ــ كافية فى الاشارة الى اهتمامهم العملى حينذاك ، وهو اهتمام لا يزال يحظى بنصيبه فى العصر الحديث ، ونعنى به قضية « التعريب » .

٢ ــ أما وصله اللغة « بالحديث » فهو طابع يغلب عليه ، ويكاد يظهر فى كل ما كتب ، وذلك أمر منطقى من رجل استغرقته دراسة « الحديث » حتى صار صاحب عقلية « حديثية » واضحة ، وذلك أيضا أمر غير مبتون الصلة باللغة ان لم يكن منها بسبب وثيق ، « فالرواية » و « النقل » من أسس العمل اللغوى لا جدال .

ولعل كتابات السيوطى تعتبر أشمل ما قدم من درس لغوى متأثر بعلوم الحديث ، بل ان أبواب « الزهر » جاءت على نسق

(١) مطبعة الترقى فى دمشق ١٣٤٨ هـ .

(٢) مخطوط بدار الكتب المصرية (٨٥) لغة ، (٢٨٦ لغه) .

أبواب الحديث (١) وقد عرض الرجل فيها لما يمكن ان يكون منهجا كاملا لرواية اللغة . وعلى ذلك يفهم تأليفه فى الطبقات دليلا على تأثره « بعلم الرجال » ، وهو لم يكتف بما قدم فى « البغية » وانما عرض لذلك أيضا حين تحدث عن « الطبقات والحفاظ والثقات والضعفاء » ، وعن « الأسماء والكنى والألقاب » وعن « المؤتلف والمختلف » ، وعن «المثقف والمفترق» وعن «المواليد والوفيات» (٢).

ولقد يكون صحيحا أن نقرر أن أعمال السيوطى جميعا متأثرة بدرسه لعلوم الحديث ، يظهر ذلك فى اتجاهه الى « الجمع » والى « النقل » ، و « والاسناد » ، واستعمال « المصطلح » فى أغلب الأحيان .

٣ ــ ثم يأتى وصله اللغه « بالأصول » وهو منهج سبقه اليه عدد من علماء العربية الكبار أشهرهم ابن جنى واين الآنبارى ، والحق أن هذا الاتجاه كان جديرا ــ لو قدر له ــ أن يطور الدرس اللغوى تطويرا أساسيا ، ذلك أنه لم يكن يدرس بابا من أبواب اللغة أو ظاهرة من ظواهرها ، وانما كان يستهدف علم « الأصول » فى محاولة الوصول الى منهج لاستنباط الأحكام ، أى أنه كان يبحث عن « الخصائص » العامة التى تميز اللغة مما يهدى الى وضع قوانينها وضعا « علميا » يطمئن اليه روح البحث ، ولم يكن أمامهم الا « علم الأصول » الذى سيظل ــ دون ريب سمة بارزة من سمات الفكر الاسلامى .

وقد كتب السيوطى كتابه « الاشباه والنظائر » (٣) متأثرا بما

---

(١) أنظر فى المزهر : معرفة الصحيح الثابت ، معرفة ما ورد من اللغة ولم يصح وما ثبت ، معرفة المتوافر والآحاد ، معرفة المرسل والمنقطع ، معرفة الأفراد .. الخ .

(٢) أنظر الزهر : ٣٩٥/٢ ــ ٤٥٨ .

(٣) طبعة حيدر آباد ١٣١٨ هـ .

قدمه تاج الدين السبكى فى « الأشباه والنظائر » فى الفقه ، وجاءت (فنونه السبعة) على نحو ما كتب الأصليون ، فنجد المصادر العلية فى القواعد النحوية ، والتدريب ، وهو فن القواعد الخاصة والاستثناءات ، وسلسلة الذهب فى البناء من كلام العرب ، وللسمع والبرق فى الجمع والبرق ، والطراز فى الألغاز ، والتبر الذائب فى الأفراد والغرائب ، والمناظرات والمجالسات .

على أن « الاقتراح فى علم أصول النحو » (١) يعتبر أقرب أعماله وأشهرها الى علم « الأصول » وقد قرر ذلك هو فى صدر كتابه حين قال : « ورتبته على أصول الفقه فى الأبواب والفصول والتراجم » (٢) ، وقد حد أصول النحو على طريقة الأصوليين بأنه « علم يبحث فيه عن أدلة النحو الاجمالية من حيث ادلته ، وكيفيته الاستدلال بها ، وحال المستدل » (٣) ، ولعله كان يستهدى الامام الشافعى (٤) حين جعل هو أدلة النحو أربعة ، وقد كانت عند ابن جنى وابن الانبارى ثلاثة ، اذ رأى ابن جنى أنها السماع والاجماع والقياس ، ورآها ابن الأنبارى السماع والقياس واستحصاب الحال، لكن السيوطى جعلها السماع والاجماع والقياس واستصحاب .

على أن الذى يهمنا هنا أن الشعور بالحاجة الى علم يحدد أصول الاستنباط ، أى يضع القوانين العامة للبحث اللغوى هو الذى دفع القدماء الى الكتابة فى « أصول النحو » ، وكما قلنا انهم لم يبحثوا عنه فى مصادر « خارجية » وانما أخذوه مما هو واقع بينهم كل يوم وهو أصول الفقه ، غير أن هذا الشعور هو نفسه الذى يجعل

---

(١) طبعة حيدر آباد ١٣٥٩ هـ .

(٢) ص ٢ .

(٣) ص ٤ .

(٤) حين قرر الأصول الأربعة فى الرسالة .

اللغويين المحدثين يبحثون عن علم يحدد أصول البحث وطرائقه ويضع القوانين العامة التى ينبغى أن يسير عليها الباحث ، وهم لا يزالون يتطورون حتى الآن من « الوصفية » (١) المطلقة التى سادت حتى أواخر العقد السادس من هذا القرن ، الى « التحويلية » (٢) التفسيرية التى بدأت تذدهر فى السنوات الأخيرة ، وهى كلها — على أية حال — تمثل السعى نحو الوصول الى قوانين البحث فى لغة الانسان .

٤ — وبعد القرآن ، والحديث ، والأصول ، يتحرك الجهد اللغوى فى خدمة كل ما يتصل بالدين ، فيقدم فى الوقت نفسه ملاحظات لغوية تنضاف الى خصائص المنهج ، من ذلك ما كتبه السيوطى فى التطور اللغوى حين عرض للألفاظ الاسلامية فى رسالة من رسائله عن « أصول الكلمات » (٣) حاول فيها أن يبحث عن المعانى اللغوية التى كانت عليها هذه الألفاظ قبل الاسلام : « أصل العبارة الخضوع والتذلل ، أصل الطغيان الانقباض ، أصل الفسق الخروج عن الشىء ، أصل التلاوة الاتباع .. الخ » (٤) ومن هذا الوادى ما قدمه فى « الرياض الأنيقة فى شرح أسماء خير الخليقة » (٥) بجمعه أسماء الرسول صلى الله عليه وسلم مبينا اشتقاقها وضبطها وتصريفها . وهذا كله غير بعيد عن البحث اللغوى ، فمعرفة « الأصل » كانت تسود منهج الفيلولوجيا ابان القرن الماضى ، ثم عادت تظهر عند «التحويليين» فى السنوات الأخيرة . ولقد ظلت هذه المسألة موضعا يوجه الى النقد فى الدرس الغربى حتى تأكدت أهميتها الآن . والمشكلة أن القدماء

---

(١) Descriptive

(٢) Transformational

(٣) رسالة صغيرة طبعت ضمن كتابه « المتوطى » .

(٤) ص ١٤ .

(٥) مخطوطة دار الكتب ٢٣٣١٦ ب .

توقفوا عند هـذا الذى قدموه ، وتوقف السـيوطى عند « جمع » ما قدمه السابقون ، ولم يحدث تطوير لهذا الاتجاه بما كان حقيقـا أن يؤدى الى نفع كبير •

٥ ــ ويكتب السيوطى فى التاريخ فلا ينس لغويته وانما يعرض حيث تدعو الحاجة الى ما ينبغى لمثله أن يعرض له ، واذا هو أيضـا لا يبتعد عن الدين ، ترى ذلك فيما كتبه فى « الشـماريخ فى علم التاريخ » (١) عن أسماء الأيام واشتقاقها ومعناها ، وهو موضـع من البحث له مكانه فى الحياة الدينية لأهميته فى معرفة «المواقيت» (٢) ثم يتناول الاستعمال اللغوى فى التعبير عن التقويم : « يقـال أول ليلة فى الشهر كتب لأول ليلة منه أو لغرته ، أو لمهله ، أو لمستهله ، وأول يوم لليلة خلت ثم لليلتين خلتا ثم لثـلاث خلون الى العشر ، فخلت الى النصف ، فللنصف من كذا وهـو أجود من خمس عشرة خلت أو بقيت •• » •

هذا اذن هو المنهج العام الذى صدر عنه السيوطى فى كل ما قدم من درس لغوى ، وهو منهج وصل اللغة بالعلوم التى نشأت فى ظلال القرآن ، وأخذت تستهم فى ظواهر التأثير والتطور •

على أن ذلك كله ليس الوجه الوحيد لهذا المنهج ، وانما وجهه الثانى هو ما قدمه علماء العربية من درس للظواهر اللغوية فى أشكالها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية • ويحتل السـيوطى فى ذلك مكان الجامع الذى اطلع على جهود السـلف واستوعبها ــ وأدرك حينذاك ضرورة الاحاطه بهذه الجهود وتقديمها للناس ••

وملاحظاته الصوتية تسير فى هذا الاتجاه ، غير أنه لم يخصص

---

(١) ليدن ١٨٩٤ •

(٢) انظر فى هذا كتاب الأزمنة والأمكنة للمزروق ــ وكتاب تثقيف الألسنة بتعريف الأزمنة لمحمد بن عبد الله الشبلى •

عملا مستقلا لهذه الدراسة شأن ابن جنى فى « سد ضاعته الاعراب » مثلا ، وانما فى ملاحظات كما قلنا تأتى هنا أو هناك ، وتدور حول الأصوات وأوصافها ، وحول القلب والابدال ، أو حول «الأتباع» (١) وغير ذلك مما كان يتحدث عنه القدماء .

على أن أكثر ما كان يهتم به هو الصلة بين « اللفظ والمدلول »، فنقل هذا الاتجاه عمن كان يذهب اليه من القدماء ، وركز عليه ، ولعله كان متأثرا بابن جنى الذى فصل هذا الاتجاه فى كثير مما كتب ، وان كان السيوطى فى الأغاب يرجعه الى أهل الأصول وأصحاب الكلام ، ومن ثم يسبغ عليه تجديدا عقليا بحيث يكون نتيجة « النظر » وليس نتيجة « الواقع » اللغوى كما يقولون ، فيقول : « نقل أهل أصول الفقه عن عباد بن سليمان الصميرى من المعتزلة أنه ذهب الى أن بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة للواضع على أن يضع ، قال : والا لكان تخصيص الاسم المعين بالمسمى المعين ترجيحا من غير مرجح. وكان بعض من يرى رأيه يقول : انه يعرف مناسبة الألفاظ لمعانيها . فسئل ما سمى (أزغاغ) وهو بالفارسية الحجر ، قال : أجد فيه يبسا شديدا ، وأراه الحجر » (٢) .

ومهما يكن من رأى فقد كان ذلك اتجاها متسقا مع سير الحياة العقلية عند العرب ، ومع أنه واجه رفضا لدى الدارسين المحدثين ؛ فان عددا منهم قد ذهب اليه ، ولاتزال هناك أبحاث فى بعض الجامعات العالمية يقوم على أساسه (٣) .

أما النحو والصرف فقد كانا علما واحدا عند العرب منه قدم سيبويه « الكتاب » ، ولا نحسب التآليف الصرفية المفردة كانت فصلا

(١) المزهر ١/٤٦٠ ، ١/٤١٠ .
(٢) المزهر ١/٤٧ - ٤٩ .
(٣) أنظر ما كتباه فى « فقه اللغة فى الكتب العربية » عن المستوى الصوتى .

للصرف عن النحو ، لأن الاتجاه الغالب ظل على الجمع بينهما كما كان ، وهو هو ما انتهى اليه الدرس الحديث من جعل « النحو » جامعا « للصرف » و « للنظم » على السواء .

ولقد تعددت أعمال السيوطى وتنوعت فى هذا المجال ، فيكتب فى أصول النحو على ما بيناه فى « الاقتراح » ، وكتب مؤرخا لنشأة النحو والصرف فى رسالته « الأخبار المروية فى سبب وضع العربية » (١) ، ثم توفر على عدد من مصنفات النحو بالشرح والتعليق، فشرح ألفية ابن مالك فى « البهجة المرضية فى شرح الألفية » (٢) ، وقدم « النكت على ألفية ابن مالك ، والكافية والشافية لابن الحاجب، وشذور الذهب ونزهة الطرف لابن هشام » (٣) ، و « شرح شواهد المغنى » (٤) وغير ذلك من الشروح ، ومن الواضح أن الرجل قد ركز على هذه المصنفات التى كانت منشرة فى عصره وبخاصة فى دور العلم المصرية ، وقد يفسر ذلك استمرار الاهتمام بها حتى الآن .

وهذا الاطلاع جعله يستقل بعد ذلك بتآليف نحوية ، كانت احداها ألفية سماها « الفريدة » (٥) ، ولا بأس من « شرح » لها سماه « المطالع السعيدة فى شرح الفريدة » (٦) ، غير أن أهم أعماله — لا شك هو كتابه « جمع الجوامع » وشرحه « جمع الهوافع » الذى يعد مصدرا من مصادر النحو العربى لما فيه من مادة تكاد تستوعب جهود القدماء .

وأما ما كتبه فى « الدلالة » فان أهم ما فيه أنه قد يكون أول

---

(١) طبعت مع مجموعة التحفة البهية والطرفة الشهية .
(٢) ١٢٧٢ هـ .
(٣) مخطوطة دار الكتب ٥٨١٥ هـ .
(٤) البهية ١٣٢٢ هـ .
(٥) القاهرة ١٣٢٢ هـ .
(٦) مخطوطة دار الكتب ٥٨١ نحو .

من قدم دراسة لنشأة المعجم العربى وتطوره (١) ، وأنه حين تناول مداد « الدلالة » تناولها فى الأغلب الأعم متأثرا بما قرره الأصوليون فى هذا المجال ، ومن ثم نفهم عرضه للحقيقة والمجاز ، والخاص والعام، والمطلق والمقيد . ثم انه فضلا عن ذلك تطرق الى كل ما تطرق اليه القدماء كحديثه عن « الاستقاق » و « المولد » و « المشترك » و « الأضداد » و « المترادف » و « المشجر » . ومن بينها موضوعات لا تزال فى حاجة الى تتبع علمى يكشف عن دورانها فى الاستعمال اللغوى . وقد يكون السيوطى أحد المصادر المرشدة فى هذا الميدان .

وبعد ، فلا شك أن قيمة الدرس اللغوى عند السيوطى لا ترجع لى « جديد » قدمه الرجل ، وانما تكمن فى هذا « الجمع » الطيب لجهود القدماء ، وفى تمثيله لهذا الجو العام الذى نشأ فيه هذا الدرس وتطور ، وليس هذا قليلا بالنسبة لعصر الرجل ، بل ليس أمرا هينا أن تعد أعماله من نوع « دوائر المعارف » التى ترشد الباحث ابتداء الى المواطن التى ينبغى أن يتلمسها ، والى المصادر الضرورية التى ينبغى أن يعتمد عليها فى عمله العلمى . وهذا وحده كاف فى تقدير قيمة الرجل ، فضلا عن أنه لا يحجب اسهامه فى تطور الدرس اللغوى ، وفى خدمة لغة القرآن .

---

(١) المزهر ١/٧٦ ـ ١٠٣ .